آفاق دولية بعد الرباط

سمير عطاالله

« ان ما يحدث الآن هو انتقام من اوروبا القرن التاسع عشر » .

فاليري جيسكار ديستان

هذا الكلام قاله الرئيس الفرنسي في المؤتمر الصحافي الشهير الذي تخطى فيه مواقف الجنرال ديغول نفسه عندما أصبح ، اول زعيم اوروبي مسؤول ، يتحدث عن الوطن الفلسطيني ، ملزما فرنسا بذلك ، وربما الاسرة الاقتصادية الاوروبية كلها ، بأول اعادة اعتراف رسمية بفلسطين .

وعندما تحدث جيسكار ديستان عن « الانتقام من اوروبا القرن التاسع عشر » لم يشر الى العرب علنا بالطبع ، لكنه لم يكن يقصد أحدا غيرهم . كان يقصد هذه القوة الهائلة التي نبتت فجأة لتعود واحدة من أهم القوى العالمية ، بعدما ظلت ، طوال قرون عدة ، تنتقل من نير استعماري الى آخر ، وكان يقصد بالتأكيد هذا الشعب الذي خرج مفاجأ ومهزوما من حرب ١٩٦٧ ، لكي يتحول خلال سنوات قليلة الى قبضة حقيقية تعصر راحتها عنق اسرائيل وتعصر أطراف أصابعها عنق العالم الغربي كله ، أمام الاطلسي وخلفه .

الى عامين خليا ، كان مثل هذا الكلام يبدو شعرا او ضربا من فنون الخطابة . لكنه الآن يبدو دون الحقيقة بكثير : لم يعد هناك متفرجون في النزاع العربي ــ الاسرائيلي. لم يعد هناك حياد ولم تعد القضية الفلسطينية مسألة قابلة للتأجيل ، فهي ، اخيرا قد اقتحمت العالم .

كيف ؟ ولماذا ؟ هل هو النفط ؟ هل هو الفلسطينيون ؟ هل هو حرب تشرين ؟

الثلاثة معا . ومعهم ايضا ، وهذا الاهم ، بروز الامة العربية للمرة الاولى ، بحكامها وليس بشعوبها فقط كما كانت العادة من قبل ، أمة واحدة موحدة من المحيط الى الخليج . هذه المرة لم تترك امارة واحدة خارج القضية ، ولم يبق أحد خارج القضية . واذا كان امتداد الجبهة العسكرية قد انحصر في الجولان والسويس ، فان الجبهة القومية كانت مفتوحة على امتداد الوطن العربي كله ، برغم مفارقاته التنظيمية والايديولوجية وحتى الاجتماعية .

هكذا قام ، بالنسبة الى الغرب ، واقع جديد . فقد كان من بديهيات التكوين الاستعماري ، انه يتكل على تفسخ الشعوب والامم . وقد مارس الاستعمار البريطاني هذا التفسخ في البلاد العربية أكثر من أي مكان آخر ، كذلك مارسته فرنسا ، أحيانا منفردة واحيانا بالاشتراك مع بريطانيا . ثم جاء استعمار فوستر دالاس بينما كانت الامة العربية في بداية النهضة من الكبوة الطويلة ، ومارس السياسة نفسها ، طارحا هذه المرة فكرة الاحلاف والمعاهدات .

لكن عاما بعد آخر أخذت الدول العربية تتجه في خط الوحدة العامة ، كلما ازداد